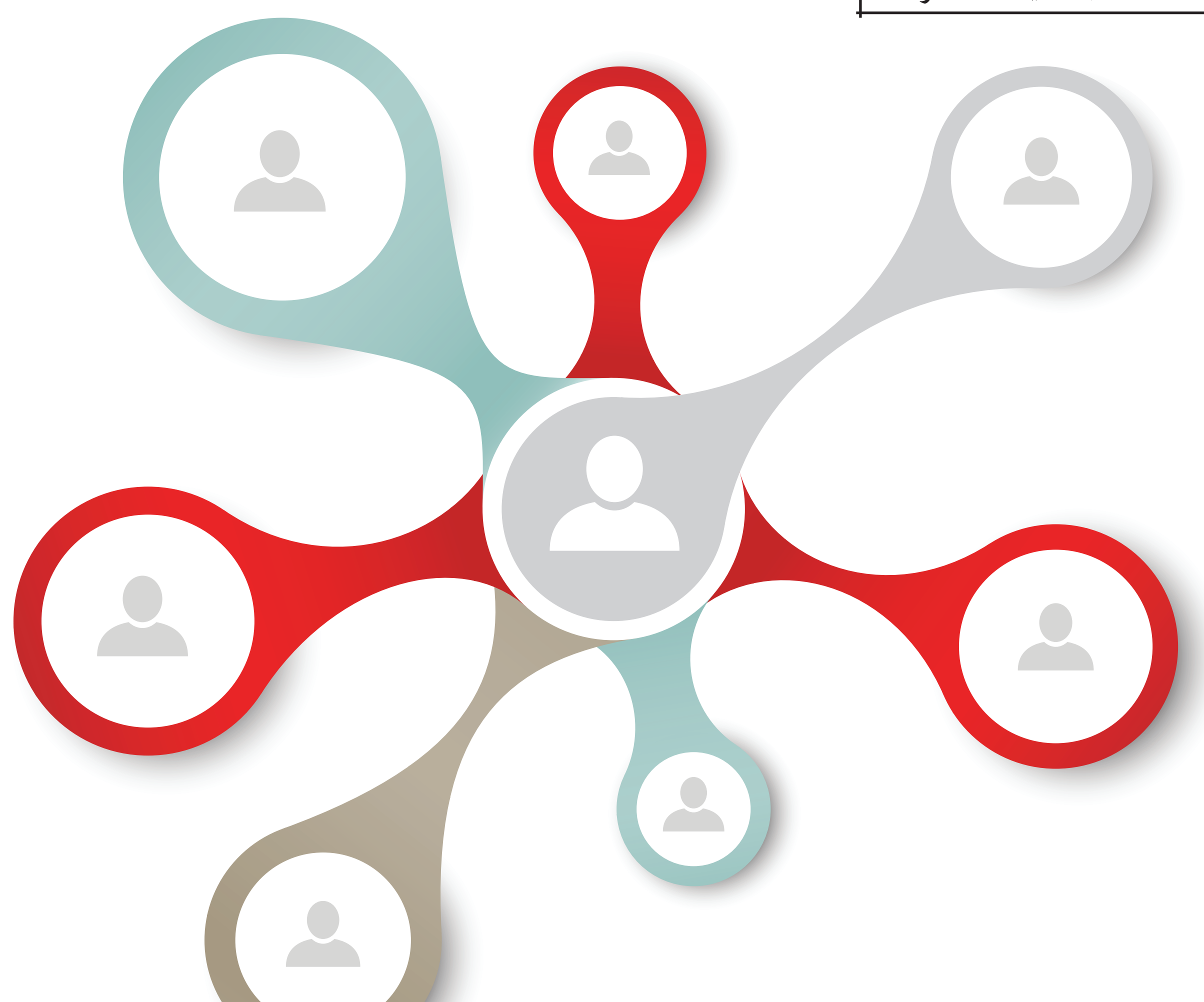

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العلوم الإنسانية.. وخرائط التمدن

د. هبة رءوف عزت
أستاذة جامعية - مصر



هذه إطلالة من العلوم الاجتماعية لمحاولة استجلاء سبيل العقل وتحريه للرشد وتأسيسه على الوعي بالفطرة، وذلك في دورانه مع مقومات التصور الإسلامي في مسائل «فقه التمدن» و«مقاصد العمران».

فما يزال جدل المجتمع المدني يتجدد دون مزيد بحث في معنى التمدن ذاته، وما يزال العقل الإنساني يسعى لفهم معناه مقترنا بالطبيعة الإنسانية تارة، وبأسس الاجتماع تارة، سعيا لأقوم المسالك لتحقيق رسالة البشرية وبناء الحضارة.. تجتهد في ذلك العقول وترشد لذلك النبوات والكتب، وتدل عليه السنن والآثار.

ويمكن تصنيف اقترابات كتب التراث الإسلامي في فهم مقومات «الاجتماع البشري» لخمس مدارس: أولها «المدرسة الفلسفية» وهدفها تحقيق السعادة للإنسان، وفي ذلك تكلم كثير من الفلاسفة، ومنهم على سبيل المثال: الفارابي، عندما تحدث

عن «العلم المدني»، وجمع فيه بين الاجتماع والأخلاق والسياسة، وقال: إن هدف هذا العلم أو غايته أو مقصده هو تحقيق سعادة الناس في الدارين، وبالتالي بدأ يقسم المدن والحواضر المختلفة إلى أنواع، منها: ما هو مدن فاضلة، ومنها ماهو غير ذلك، وصنفها وتحدث عن أهلها، وصاغ نظرية في البحث عن السعادة والفضيلة، وكيف تنجح بعض المدن، وبعض الصيغ العمرانية الاجتماعية والإنسانية في تحقيق الفضيلة، وكيف أن بعضها لا يتمكن من ذلك، أو يبدأ هذه البداية ثم يبدأ في السقوط والبعد عن هذه القيم والمعاني.

المدرسة الثانية: التي ننظر إليها ونتأمل فيها هي التي نظرت إلى علوم الاجتماع، أو نظرت إلى العمران باعتبار أن غايته تحقيق أحكام ومقاصد الشرع، من أجل بناء مجتمع أخلاقي، وأن قِوام هذا المجتمع هو تزكية الأنفس، فأبوحامد الغزالي على سبيل المثال يرى أن: «الدين أصل والسلطان حارس، فما لا أصل له فهو مهدوم، وما لا حارس له فهو ضائع»، وربط بين الإمامة والولاية من جهة، والأخلاق من جهة أخرى، فالأخلاق أساس العمران والتمدن.

المدرسة الثالثة: هي التي نظرت إلى العمران في إيقاعه المؤسسي والإداري، و«كيف» ندير هذا العمران، أي سياسات القوة والسلطة، فتحدث «الماوردي» عن الأحكام السلطانية، وبسط وفصل في كيفية إدارة الجوانب المختلفة في الحكم، وبنية الدولة الإسلامية، أي نظر إلى العمران من جهة طرق إدارته.

المدرسة الرابعة: هي المدرسة «الفقهية»، والتي قد يظن البعض أنها انشغلت بتفاصيل تنزيل الأحكام، والحقيقة أنها انشغلت أساسا بمسألة العلاقة بين العقل والنقل، وإصلاح الدنيا بالعقل والوحي، ولدينا الرسالة الصغيرة التي كتبها ابن رشد «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، ثم كتب أيضا ابن تيمية نصا طويلا نفيسا في «درء تعارض العقل والنقل» وكيف يقترب العقل من النص، وما هي القواعد المختلفة للفهم، واختلاف المفاهيم والتحرز فيها لأنها مساحة الدلالة، وكيف يمكن المقارنة والمقايسة بين المفاهيم في علوم الإنسان وعلوم الشرع.

ثم تطورت بالتوازي المدرسة الخامسة وهي المدرسة «الاجتماعية/التاريخية» التي كان أحد أبرز رموزها ابن خلدون، عندما تحدث عن التمدن والتأنسن والتوحش، والبداوة والحضارة، والعصبية، وتحدث عن العمران في مساراته ومدارجه وصيغه وتحولاته، والفرق بين الخلافة والملك، وفصل في الجوانب المختلفة لشروط الاجتماع وأبعاده المعمارية، والاقتصادية، والتنظيمية، والثقافية في صيرورتها.

من التوحيد والتكامل إلى النسبية والمادية

تجاوزا لهذا التراث -ليس الإسلامي فحسب، بل كافة الأنساق الدينية والفلسفية المقارنة في الحضارات القديمة- كان العقل التنويري، ثم الحداثي في أوروبا، ثم في مرحلة ضعف المجتمعات الإسلامية وبدايات الاستلاب والسيطرة السياسية والفكرية والجغرافية، يسعى لتقديم رؤية تُعلي نظر العقل في الشأن والحالة الإنسانية، وتعمل على أن تحرره من الغيب والوحي والتاريخ؛ بإحياء الفلسفات التي تأسست على الوثنية والأساطير، ليهيمن هذا النسق في النهاية ويغلب كل محاولات التوفيق والتلفيق مع النسق الديني، فيتم تهميش الغيب ثم تسفيهه في النهاية، وانصرف منهج النظر إلى العقل والواقع لخدمة مصالح الاقتصاد والجغرافيا وتطويع المفاهيم لهذه الغاية.

إن هذا التحول قد شهد البدايات الأولى للحديث عن المجتمع المدني كمجال وقطاع تحت مظلة الدولة القومية القُطرية الناشئة... من هنا فإن صعود الحديث عن المجتمع المدني عبر القرون الثلاثة الماضية لم يقابله حفاوة مماثلة بمفهوم التمدن ذاته وقواعده ومقوماته في ظل تلك العلاقة الحداثية بين المجتمع والدولة، بل كان الاهتمام جُله منصبا على مفهوم المواطنة، حيث للدولة اليد العليا ولقوتها اليد الطولى.

وقد بدأت العلوم الإنسانية كما نعرفها اليوم في تقسيماتها الكبرى تتطور في ظل هذه الخلفية، تلك العلوم التي نشأت في إطار هذا الواقع الذي يحتفي بالعقل وكشوف العلوم الطبيعية، ففصلت نفسها عن المنظومة الغيبية والأخلاقية والروحية، وسادت النظرة للحال دون تحسب للمآل في العلوم الطبيعية (بما أدى لاستنزاف الموارد وخلل التوازن البيئي)، ولم تملك العلوم الإنسانية المكانة ولا الرؤية التي تؤهلها لتحجيم النظرة المادية للحياة وتدارك آثارها.

سؤال التمدن.. ومنطق الاجتماع وغاياته

ماهي غايات الاجتماع الإنساني؟

سنجد أن هذه الغايات إذا أردنا أن نختصرها تتبلور فيما رآه الفقيه من مقاصد الشريعة، وسنجد أن غاية الاجتماع الإنساني حتى في المجتمعات التي لم تتبن النظر الشرعي، ولم تتبن رؤية الوحي للإنسان ولدوره في هذا الكون، تسعى لتلمس نفس المقاصد التي طورها الفقهاء:

فـ«حفظ الدين» هو حفظ المنظومة أو الميزان الذي يقوم عليها أي مجتمع، فأي مجتمع يريد أن يحفظ لنفسه منظومته القيمية والأخلاقية حتى وإن كانت منظومة من صنع الإنسان أو من صنع عقل الإنسان منفكة عن الوحي والرسالات والنبوات، فالدين هنا بالمعنى الذي فسره القرآن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي التصور والمسلك. فهناك لكل جماعة دين، لا يوجد جماعة لا يوجد لديها منظومة أفكار وتصور للكون والحياة، حتى وإن كان

إلحاديا ووثنيا أو غيره، والأصل أن ننظر في هذه المنظومات لنفهم هذه الأنساق ورؤيتها للاجتماع البشري.

و«حفظ النفس» كان مسألة أساسية في أي اجتماع بشري، حتى في نظرية الخيار الرشيد التي تأسس عليها فهم الاجتماع بقياسه على حسابات الاقتصاد، وقياس المواطن في دائرة المجتمع والدولة على المستهلك في دائـرة الاقـتـصـاد والمنفعة المادية، وكانت نظرية العقد الاجتماعي قد انبنت على فكرة حفظ النفس، وعليها بنت نشأة الدولة وأسست الاجتماع، فالعقد الاجتماعي الذي يؤسس للتمدن وللعمران قائم على الاضطرار وقائم على هيمنة السلطة، لأنه بدون ذلك وبدون هذا الالتزام من قبلهم يتفكك المجتمع مرة أخرى ويتشظى إلى ذرات. لكن النفس هنا هي محض الحياة دون منح النفس تعريف يربطها بالأزل والأبد.

و«حفظ العقل» كان من المقاصد.. فالفنون والآداب، والتفلسف والتفكير بدا احتفاء بالعقل، لكنه كان عقلا فرديا يدور في مدارات الطبيعي، ولا يتجاوز سقف المادي.

«حفظ المال» كان أيضا حاضرا في الغايات الأساسية لنمو المدن التجارية ثم الصناعية، بل تعداه لتحصيل ثـروات الأمم الأخـرى بالاستيطان والاحتلال العسكري، وهو مثال على انفكاك حفظ المال من أخلاقية المصدر وخيرية الغاية. ولدينا نماذج مختلفة للمدن والحواضر عبر التاريخ الإنساني كان لكل منها منطق وتأسس على كل منها صيغة للاجتماع، بعضها ظالم لنفسه.. ولغيره، وبعضها سابق بالخيرات.

ويظل السؤال: هل يمكننا اصطفاء مفهوم للتمدن يغدو الأكثر إنسانية، ويصير مقياسا نموذجيا بحيث تقاس عليه مستويات التمدن، مثالية ثم نقصانا ثم هبوطا للتوحش والبهيمية والطينية؟

خرائط المعنى.. والذات.. والوجود

أحسب أن هناك عدة عناصر يمكن أن تساعدنا في بناء المفهوم ورسم خرائط المعنى، وأن هذا بقدر ما يتطلب مساهمة العلوم الإنسانية بقدر ما سيؤدي هو ذاته -كمراجعة وإعادة بناء العديد من المفاهيم- إلى تطوير العلوم الإنسانية خلال هذا المسعى.

أول هذه العناصر هو «عنصر الميزان». فما هو الميزان الذي به نقيس؟ وهل نجح العقل وحده خلال القرون الثلاثة الماضية في ضبط الميزان وتحقيق العدل والسعادة كما تطلعت الفلسفة في تاريخها الطويل، بعيدا عن ميزان الغيب والنبوة والوحي؟

هناك محاولات حثيثة منذ فترة طويلة للحديث عن مراجعة العلوم الاجتماعية و«أسلمة المعرفة»، سواء بالبينية وعبور الفجوة بين العلوم المختلفة لتتكامل، أو بوَصل ما انقطع بين النظر العقلي والنظر الشرعي. وتتوازى معها محاولات في العالم المسيحي ودوائر الحضارات القديمة في الشرق، يقودها رجال دين وتيارات محافظة وروحية تسير على سبيل مشابه.

والغاية هي النظر للإنسان من وجهة متكاملة ترد له تكامله واتساقه، لكن البينية بين العلوم من جهة لا تكفي دون تغيير الخريطة المعرفية ذاتها، ووصل ما انقطع يحتاج بناء عقلية تجمع بين معارف شتى، ولديها القدرة على الاجتهاد والتوليد، وهذه نادرة في المؤسسات التعليمية التي انبنت على التقسيم والتفتيت والاحتفاء بالتخصص، والعزوف عن الموسوعية وهجرها، فضلا عن مسألة ثالثة هي الربط بين ذلك.. حصاد تلك التحولات والسياق السائد في الدوائر العلمية الدولية كي تتحقق غاية «الرحمة للعالمين»، ولا يكون ما ينتجه العقل المسلم معزولا ومهمشا أو عاكفا على ذاته مقصرا في رسالته.

ويبقى سؤال علاقة العلم بالأخلاق، ثم علاقة العلم بالواقع والوظيفة الكفاحية للعلم للتهيئة للعمران والتمدن في الواقع وليس في التصور- إنشاء أو استدراكا أو نماء وترقية- هو السؤال الفارق.

العنصر الثاني: هو عنصر أو تصور الإنسان.

تصورات الإنسان في كثيرها تصورات مركبة، الإنسان في تصوره الفلسفي/ الإنسان وتجليات المكان، وعلاقات الأبدان في الحيز، فالتمدن تصوراته لا تنفك عن المساحة والحيز بين مدينة.. والمعمورة وكوكبة العولمة. العلوم الاجتماعية هنا رافد مهم لفهم العقل الشرعي للمستجدات. و«المشكاة المقاصدية» أسميها في غاية الأهمية في هذا السياق.

البعد الثالث: إذا أردنا أن نعيد خريطة العلوم الاجتماعية ونمزج ليس خلطا للفقه بالاجتماع، وإنما النظر والفهم بمعنى الحكمة بمعنى النظر هو: «بُعد المكان» ذاته، التمدن في حد ذاته أصبح مختلفا عن تصور ابن خلدون، مثلا عندما نتحدث عن صيغ التمدن الآن نتحدث عن مدن لا يمكن وصفها بأنها مدن فاضلة، مدن اختلط فيها الفاضل بغير ذلك، مدن مساحتها هي مساحات أسواق، أو بنيت بالأساس في المرحلة الرأسمالية في أوروبا، والتي نقلنا عنها تخطيط المدن بشكل يعتمد على تسهيل حركة التجارة، بأكثر مما يعتمد على تواصل البشر في داخل المدينة، ومن المهم هنا أن نفهم نظر فقهاء الإسلام إلى العمران من الناحية المساحية، وتحولاتها المعقدة في مرحلة العولمة، واختصار المسافات وتعدد الجنسيات، وتقاطع الأسواق، ناهيك عن «اللامكان» في العالم الافتراضي ومنتجات تكنولوجيا الاتصالات.

لذلك من المهم فهم كيف استوعب الفقيه مسألة المساحة والمكان والأرض والملكية والحقوق المشتركة بين الناس، وموازنة المصالح العامة والخاصة، لكن الآن لدينا علم كامل هو علم

اجتماع المدن الذي يبحث في الأمكنة التي يتحرك فيها الناس، والتي بدأت في إثارة مشكلات حقيقية في إدارتها وفي خلق المنظومة الأخلاقية والقيمية التي كان يمكن أن تتنزل عليها كثير من الأحكام الشرعية، فالمدينة لم تعد تقترن بالتمدن وفضائله، بل بالفردية وتفكك الأبنية المجتمعية في أحيان، وفي أشياء كثيرة، فهذه مسائل أيضا تحتاج أن ينظر فيها الفقيه بعقلية الشرع والمقاصد، وأن ينظر إليها باحث العلوم الاجتماعية ويشترك في النظر في كيف ننظم الأمكنة والملكية والمساحات والخصوصيات، وإن لم يعد هذا ممكنا نتيجة للعشوائية، وغياب التخطيط العمراني، والوعي المعماري على المساحات القائمة الآن.. ماذا نفعل وكيف نتعامل مع هذه المستجدات؟

العنصر الرابع: هو «عنصر الزمان» سواء كانت امتداداته كيف ننقل الفهم والحكمة التي نظر بها الفقيه أو عالم الاجتماع أو الفيلسوف المسلم إلى واقعنا باختلاف الأزمنة وباختلاف طبيعة الوقت والتنظيم، وعلى خريطة اليوم، وكذا يعني مفهوم الزمن والوقت وما يحويه من علاقات إنتاج وملكية ورأسمالية وعلاقات إنسانية وأنماط استهلاكية، كيف ننظر إلى المآل وكيف يؤخذ في الاعتبار وضع السياسات العامة وفي التعامل مع حقوق الناس وغيرها؟ هذه مسألة غائبة رغم أن تقاطع الأزمنة في الوعي والمرجعية التاريخية في اشتباكها مع الواقع وصدامها معه، وما يحويه التاريخ من أنماط تفاعلات يعاد إنتاجها في أزمنة أخرى من أبرز المشكلات التي نواجهها في المجتمع وفي السياسة اليوم..

العنصر الخامس: هو بُعد «العمران»، كما ذكرت في مسألة المكان والمساحة، ولكن بشكل أكثر تركيبا، بمعنى بنيان العلاقات والمؤسسات التي يتم من خلالها إدارة هذه العلاقات بين الطبقات المختلفة، إدارة المحليات، وتقسيم الموارد، وملكية الأرض، والثروة، وإدارة القوة في مسألة التعامل الأخلاقي بين الدولة والقوى الاجتماعية، ودرجة وعي النخب بالسنن وانعكاس ذلك على توطيد أو تآكل رأس المال الاجتماعي والأخلاقي والفضائل المدنية.

العنصر السادس والأخير: هو «بُعد الأكوان»، نحن أهملنا كثيرا الربط ما بين مقاصد الشريعة ومقاصد العمران والنظر في الأكوان، ونحن مسؤولون عن هذه الأكوان المحيطة بنا، والأمم أمثالنا التي ذكرها القرآن.. حيث يلاحظ أننا لا نعبأ بها أبدا ولا نهتم بها إطلاقا، رغم أنه تاريخيا انتشر الوقف على الحيوانات والطيور الموجودة بالمدينة الإسلامية، واعتبر أحد مؤشرات وجود الأمن في تلك المدينة، ومستوى التمدن الإسلامي.. فضلا عن العوالم الإنسانية التي لا يصلها نموذجنا التوحيدي، ولا تعرف شيئا عنا (أميركا اللاتينية على سبيل المثال).

التمدن من حيث هو منظومة كرامة إنسانية

في سورة الشورى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(الشورى:٣٨) فوجدت أن الشورى قبل الإنفاق وبعد الصلاة، يعني ترتيبها بين الصلاة والنفقة، أي الصلاة وإنفاق المال، تم تسكينها في المرتبة الثانية في الترتيب بعد الاستجابة لله تعالى، وبعد الصلاة، وقبل إنفاق المال أو الاستخلاف في القول، فوجدتها مسكنة بشكل يمزجها مزجا بما قبلها وما بعدها، هذا أمر ربما يدفع إلى التفكير في هل الوسائل والوسائط المختلفة يجب أن تأخذ في الاعتبار التفاصيل اليومية؟ أن تسكن في التفاصيل اليومية غاية من غايات التمدن الإسلامي، وهي الكرامة والشورى وغيرها، بدون أن نضيف جديدا إلى المقاصد، وإنما نعتبرها تفصيلا للمقاصد الشرعية،

وكان أستاذنا الدكتور سيف الدين عبدالفتاح قد نظر في المقاصد فقال مرة: إن هذه المقاصد الشرعية بكل ضوابطها وتأسسها على الأحكام والنصوص هي في الحقيقة لها ثلاثة مستويات، وعلى الفقيه أن يجتهد في كيفية تحقيق هذه المستويات عبر العلوم الاجتماعية التي تعينه على البحث والنظر وإدارك حالة الناس، وهي أن يكون حفظ المقاصد على مستويات: حفظ البقاء وحفظ النماء وحفظ الارتقاء، كيف توضع السياسات العامة لتحفظ النفس، لكنها تنمي هذه النفس لتكون نفسا مطمئنة من خلال كل السياقات التي تحدثنا عنها في المكان والزمان، وغيرها لازم فقط أن تحفظ النفس بناء على أن تحفظ الحياة محض الحياة، وإنما ما هي النفس الإنسانية ومستوياتها ومدارجها التي هي العلم الاجتماعي أوعلم التمدن أو العلم المدني كما أسماه الفارابي الذي يجمع بين الأخلاق والسياسة والاجتماع، أي أن ينمي هذه النفس ثم يرتقي بهذه النفس إلى مستوياتها الأعلى.

حفظ الحياة وحفظ المال ليس فقط حفظ البقاء، وإنما سعي في مدارات الخيرية، ومن دوائره التواصل مع الأمم المختلفة، لأنه من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا...، والملكية استخلاف لا إتلاف واستنزاف للطبيعة- وهكذا.

يبقى في النهاية الإشارة إلى أن التمدن الاسلامي بمعنى الفضائل المدنية بدأ قبل تأسيس «المدينة»، فالفضائل تدور مع الأفراد لا مع السلطة التي وظيفتها الرعاية والأمن، واليوم لدينا مدن حديثة بلا تمدن ولا فضائل، وربما يكون السؤال الذي يقفز لذهن الباحث هو: هل لو رأى ابن خلدون انفكاك المدينة عن التمدن كيف كان سيصوغ نظريته في العمران، وموقفه من مراحل الحضارة صعودا.. وهبوطا؟

ويبقى الملف مفتوحا..

والله أعلم